International Journal of Innovation and Applied Studies
ISSN 2028-9324 Vol. 8 No. 3 Sep. 2014, pp. 1313-1328
© 2014 Innovative Space of Scientific Research Journals
http://www.ijias.issr-journals.org/

تأثير الفكر والمعتقد على العملية البنائية: المدينة اليمنية القديمة في الالف الاول قبل الميلاد نموذجاً تطبيقياً

Influence of Thought and Belief on the Process of Building: Ancient Yemen City in the First Millennium BC as an Applied Model

م/أحمد عبد ربه النهمي[1]، أ.د/ علي حاتم جبر[2]، أ.د/ علاء الدين عبد المحسن شاهين[3]

[1]قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة ذمار، اليمن

[2]أستاذ تاريخ العمارة، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، مصر

[3]أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم، كلية الآثار، جامعة القاهرة، مصر

Ahmed Al-Nehmi[1], Prof. Aly Gabr[2], and Prof. Alaa El-Din shaheen[3]

[1]Department of Architecture, Faculty of Engineering, Dhamar University, Yemen

[2]Prof. in History of Architecture, Department of Architecture, Faculty of Engineering, Cairo University, Egypt

[3]Prof. in history and civilization of Egypt and the ancient Near East, the Faculty of Archaeology, Cairo University, Egypt

Copyright © 2014 ISSR Journals. This is an open access article distributed under the ***Creative Commons Attribution License***, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited.

ABSTRACT: Settlement pattern of cities Depends on several factors including topography, climate, available materials and the cultural expression of community. The reaserch concerns for the cultural expression of community. This research deals with the city in ancient Yemen during period of the ancient kingdoms since the beginning of first millennium BC even the kingdom of Himyarite in the Central Highlands of Yemen. The research aims to identify the relationship between the religious beliefs of a society and its impact on Architecture. The reaserch methodology depends on puting theoretical framework shows the relationship between beliefs and the process of designeing and building. Then, it is applied on the architecture through selecting of certain models of ancient cities of each kingdom. The research concluded general conclusions about Urbanism in that era, in addition to know the strength of the relationship between religious beliefs and structural output.

KEYWORDS: kingdoms of Yemen, Yemen's ancient architecture, ancient religion of Yemen, Yemen's history, symbolism.

ملخص: يعتمد نمط الاستيطان للمدن على عدة عوامل منها التضاريس والمناخ والمواد المتوفرة والتعبير الحضاري والثقافي للمجتمع، وما يهمنا في هذا الصدد هو عامل التعبير الحضاري والثقافي. يتناول هذا البحث المدينة في اليمن القديم خلال فترة حكم الممالك وذلك منذ بداية الألف الأول ق.م وحتى قيام مملكة حمير في المناطق الجبلية الوسطى. ويهدف البحث الى التعرف على العلاقة بين المعتقدات الدينية للمجتمع وتأثيرها على العمارة والعمران المدني، وعليه فقد تم طرح اطار نظري يوضح العلاقة بين المعتقدات والعملية البنائية، ثم تطبيقه على العمارة المدنية، من خلال انتخاب نماذج معينة للمدن اليمنية القديمة لكل مملكة. وقد خلص البحث إلى نتائج عامة حول العمران المدني في تلك الحقبة، اضافة الى معرفة قوة العلاقة بين المعتقدات الدينية والنتاج البنائي.

كلمات دلالية: الممالك اليمنية القديمة، العمارة اليمنية القديمة، الديانة اليمنية القديمة، تاريخ اليمن، الرمزية

Corresponding Author: Ahmed Al-Nehmi

1 المقدمة

يتناول البحث الحالي العمارة المدنية (المدن) لممالك اليمن القديم في الفترة التاريخية لليمن التي تبدأ في بداية الألف الأول ق.م (المرقطن، 2013)، وهي الفترة التي ظهرت فيها الكتابة. ونستطيع القول إن الحضارة اليمنية القديمة ونشأة الممالك قد تركزت في الهضبة الشرقية والمرتفعات الشرقية والمناطق الوسطى من اليمن. وهذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية حُكمت من قبل ممالك هي: معين، وسبأ، وقتبان، وأوسان، وحضرموت. وقد اعتمدت تلك الممالك على تجارة التوابل كاللبان والبخور، التي استخدمت كجزء من الطقوس في ثقافات عدة، حيث انتشرت طرق التجارة والتي تصل بين مركز الإنتاج في مدينة سمهرم وقنا إلى غزة، وأماكن أخرى من المناطق القريبة من البحر الأبيض المتوسط (Gerlach, 2008). ونظراً لحركه التجارة والتنقل عملت النقاط والمحطات التي تخدم المسافرين، ومن هنا توسعت تلك الأماكن مكونه المدن (المرقطن، 2013). كما أُقِيمت المدن الرئيسية لممالك اليمن على الوديان، حيث أُقِيمت مأرب عاصمة سبأ على وادي أذنه، وتمنع عاصمة قتبان على وادي بيحان، وشبوة عاصمة حضرموت على وادي المعشار، وقرناو عاصمة معين على وادي الجوف، وهجر يهر عاصمة أوسان على وادي مرخة (حنشور، 2005).

مشكلة البحث: لقد ظل تاريخ العمارة اليمنية القديمة غائباً، إلا ما تناقلته المصادر التاريخية والتي بدورها تميزت بنوع من المبالغة السردية، والتشويش الناتج من تضارب آراء الكتّاب واختلاف الروايات المتواترة. ومن جانب آخر، يشير البرفيسور يوسف محمد عبدالله حول موضوع دراسة المدن اليمنية القديمة إلى "أن الأبحاث الأثرية والتاريخية والاجتماعية في هذا المجال لا تزال في أول أمرها، بل تسير ببطء، وأبرز الجهود التي بُذلت في هذا السبيل هي أبحاث البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان، ودراسات فون فيسمن، وجروهمن، والبعثة الفرنسية في شبوة، ورسالة الشيبة في أسماء الأماكن اليمنية القديمة، ومعظم هذه الأبحاث لا تُعنَى مباشرة بتاريخ المدينة اليمنية القديمة ومواقعها وخطتها وفن عمارتها، وإنما تلمس هذه الأمور لمساً خفيفاً لدى الحديث عن الآثار والنقوش القديمة في اليمن"(عبد الله، 1990). والحقيقة، إن غالبية مَنْ قام بدراسة التراث اليمني هم الأثريون والتاريخيون في ظل غياب ملحوظ لدور المعماريين في هذا المجال، مما كان له انعكاساته في عدم إبراز التراث العمراني لليمن. وبناءً على ما سبق، فإن العمارة اليمنية القديمة، والتي كان من المفترض أن تكون بؤرة اهتمام الدراسات المعمارية، بقيت تتناول في مجالات اهتمام الدراسات التاريخية والاثرية، ولم تتم دراستها معمارياً ضمن مناهج معمارية هدفها محاولة فهم تلك العمارة.

الأهداف: يتناول البحث العمارة اليمنية القديمة وبالخصوص المدينة اليمنية القديمة، وذلك لهدفين: الأول إظهار وإبراز خصائص واسس التشكيل العمراني للمدن اليمنية القديمة خلال فترة الالف الاول ق.م، والثاني التحقق من مدى تأثير المعتقدات الدينية على العمارة والعمران لتلك الفترة.

منهجية البحث: في الحقيقة، لقد اعتمد البحث على الافكار والطروحات التي وضعها بعض علماء الانثربولوجيا وعلماء الاديان المقارنة ومنهم (ميرسيا الياد وروجيه كايوا ويوسف شلحد وروبرتسن سميث) حول المكان المقدس وحول نظرة الانسان المتدين للعالم والوجود. هذا وقد اعتمدت منهجية البحث على المنهج التقليدي والذي يستند على الثقافة وخصوصاً المعتقدات الدينية التي سادت حينها، من خلال طرح اطار نظري للعلاقة بين الرؤى العقائدية للمجتمع وتأثيرها على المنتج البنائي، ثم تطبيق ذلك على نماذج منتخبة من المدن لكل مملكة يمنية قديمة. كما تم اعتماد المنهج التاريخي والوصفي في جزئيات تقتضي ذلك.

2 الرؤى العقائدية والعملية البنائية

سيتم طرح نموذج للعلاقة بين الرؤية العقائدية والعملية البنائية عبر عدد من الخطوات، وهي: إيجاد الموقع (المكان المقدس)، ثم تحديد المركز (المقدس)، ثم تحديد الحدود (الحيازات)، وأخيراً تبني النموذج الأمثل.

2.1 إيجاد الموقع (المكان المقدس)

عادةً ما تسعى الذاكرة الجمعية للمجتمع التقليدي إلى تحويل أي فراغ إلى مكان ترغب الإقامة فيه بإحاطته بهالة قدسية تمنحه أبعاداً ميتافيزيقية. والاعتقاد بقدسية مكان ما يكمن في الاعتقاد بأن بقعة من الأرض أصبحت أرضاً مقدسة للإله يظهر نفسه فيها (Smith, 1894)، ويعرف المكان المقدس إنه "مجال أرضي، معزول عن العالم المدنس، يحظر على الإنسان دخوله عموماً، لأن روحاً خفية تجلت فيه واتخذته مسكناً لها" (شلحد، 1996)، وهذا المكان منظم بطريقة سامية تحركه قوى عليا تتصف بالقداسة، وعلى النقيض منه يوجد مكان آخر (غير مقدس) منظم بصورة عشوائية لا تعالي فيه ولا طهارة. وفي هذا الصدد، يشير كايوا إلى أن من المفترض أن يرسو أي مجتمع على نظام يصونه من المحظورات التي تؤمن سلامته، فكل ما يضمن صحتهم وثباتهم يعتبر مقدساً (كايوا، 2010). ويختلف المكان في معتقد الإنسان المتدين، فالمكان لديه غير متجانس تحكمه انكسارات ميزت ما هو مقدس عن غير المقدس، فالمكان المقدس يكون ذو بنية وشكل محدد، بينما يكون المكان غير المقدس عديم الشكل؛ والانقطاع الذي يحدث يفصح عن "النقطة الثابتة" التي تمثل المركز والمحور لكل توجهات المستقبل (إلياد، 1988).

ومن الضروري التحري عند اختيار المكان الملائم وتجنب ما يُعتقد انه فضاء يخص جالبات الشر والقوى الخفية، ومحاولة العيش في المكان الذي يتواجد داخل حدود المقدس؛ فالميل لدى المجتمعات التقليدية هو العيش اكبر ما يمكن داخل حدود المقدس الذي يتصف بالحقيقة والقوة ويكون مشبع بالكينونة (إلياد، 1988). وفي اليمن القديم كان يتم تحديد المكان المقدس (الحرم)، من خلال تخصيص ساحات واسعة تحجز للإلهة، حيث تسمى في النقوش "بطحة" أو "بطحتن"، ثم تقام المعابد في وسطها (العريقي، 2002). ويتصف المكان المناسب في اليمن القديم: أولاً، علو المكان فيكون في سفح جبل يطل على أكبر مساحه مفتوحة أو في تل مرتفع على وادي ليحقق عدد من العوامل منها الأمن من مخاطر السيول والفيضانات ومن مخاطر الحيوانات والغزاة، ثانياً وجود المناخ المناسب والمياه، ويكون قريب من مناطق الحقول الخصبة الضرورية للزراعة، يقول المؤرخين حين أتجه سام بن نوح باحثاً عن المكان المناسب وجد اليمن أطيبها ثم بحث فوجد صنعاء أفضلها (الهمداني، د.ت).

2-2 عناصر المكان المقدس

تعرف الأماكن المقدسة في اليمن القديم باسم (حمى، حرم، محرم)، وتتميز بأنها محمية يكون كل حيوان ونبات داخلها آمناً لا يجوز قتله أو قطعه (Hoyland, 2001)، ويُعرّف بعض الباحثين المكان المقدس فيقول أن "المكان المقدس هو موضع تجلي قوة خفية، يستلزم تعريفاً من حيث حدوده وسماته. فهو يتألف عموماً من ثلاث دوائر مركزية، ذات أبعاد وقداسة غير متكافئة. فالمركز، موضع تجلي الخارق بالذات، يعد بمنزلة مقام الإله، قدس الأقداس حيث لا يستطيع أحد الدخول سوى جهاز الطقس وتالياً، يبنى فيه حرم، كعبة أو بيت، أي منزل يكون في آن مقاماً للآلهة وحاجزاً يحمي المؤمن من غواية الاقتراب مما يتعدى المسموح والممكن" (شلحد، 1996). والمكان المقدس في اليمن القديم يتدرج من المركز الذي يكون المقدس بامتياز، والذي فيه يتجلى الإله ويسكنه، ثم يأتي الحرم أو المحرم، ثم الحمى الذي يطوق المكان المقدس ويحدد معالمه (العريقي، 2002) (الشكل 1). وعليه، فالمكان المقدس يتكون من:

2-2-1 المركز: هو مكان تجلي المقدس، ويمثل النقطة الثابتة التي تظهر بعد الانقطاع، والتي تسمح بتكوين العالم (إلياد، 1988)، وبهذا يتحدد المكان المقدس عبر اختيار المركز والارتباط به كونه يمثل النقطة المرجعية لجميع التوجهات المستقبلية؛ ويرتبط المركز بمركز العالم في مفهومه وارتباطه بالمقدس، ويمثل هذا المركز المكان الذي يسكنه المقدس (الإله) ويكون أما قدس الأقداس في المعبد أو المعبد نفسه في المدينة.

2-2-2 الحرم: هي الحدود المقامة بين المقدس والمدنس (شلحد، 1996)، وهو مكان مقدس يتم التعامل فيه بشكل من الخصوصية تختلف عن الأماكن العامة (Smith, 1894)، والحرم أو المحرم عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض يمتلكها الإله أو يتفق المجتمع على قدسيتها وتخصص للإله، وهذه المساحة لها حدود معينة تفصل بينها وبين الأراضي العادية. وإن لفظ محرم يمثل مجمل الموقع أي "محيط مقدس" واسع الامتداد، محيط محدد الأطراف "وفقاً لنص النصب الذي يمثل حجر حد للموقع والذي عثر عليه في أطراف موقع درب الصبي "قف /زن /محرمهن" أي حد هذا الحرم" (الأغبري، 2003).

2-2-3 الحمى: هو مجال وهمي من الأرض يحمي ويطوق الحرم، ويعرف الحمى في نقوش المسند بلفظ (محمت) و(محميم) ومعناها الأرض المحمية، والحمى هو المحجر (علي ج7، 1993)، وفسرت لفظة "حجر" في النقوش بمعنى "حماية بطلسم أو تعويذة"، والحجر في اللغة يعني المنع والحماية (سالم، 2011). وطابع الحمى القدسي يتميز بحضر ممارسة العمل الجنسي، وقتل الطرائد وقطع الأشجار، ويتوقف على حدوده عمل العدالة (كايوا، 2010). وقد شمل مفهوم الحمى كل الممتلكات والأراضي الخاصة بالإله، والأراضي الخاصة بالإفراد، وكان له قوانين صارمة يفرضها الإله نفسه، فثمة نقش عبارة عن قانون صادر من الإله تألب حول حماية مراعي خاصة بمدينة برن ومنع الرعي فيها لأفراد من خارج المنطقة (النعيم، 2000).

هذا ويختلف الفضاء وقدسية المكان لدى العرب تبعاً للقطبية الثنائية لجسم الإنسان من حيث الأمام والخلف واليمين واليسار، والأعلى والأسفل، فيكون الأمام مقدس والخلف مدنس، ويكون الأعلى مقدس والأسفل مدنس، واليمين مقدس واليسار مدنس (Sowannee, 2009)؛ ويكون ذلك حسب الاتجاه أفقياً بالاعتماد على محور حركة الشمس فاليمين ميموناً وخيراً واليسار (الشمال) منحوساً (علي ج6، 1993). وعليه، جاء معتقد العرب حول "الطيرة" فإن تيامن الطير دل على الفأل وإن اتجه يساراً دل على التشاؤم (دغيم، 1995)، وان جهة اليمين تقابل الجنوب المفعم بالبركة والخير، فريح الجنوب تحمل الخصوبة والازدهار. وعلى المستوى العمودي فانها تنقسم إلى ثنائية علوي مقدس وسفلي مدنس، وعلى هذا فالعالم العلوي مرتبط بالنور، بالنظام، بالمطر، بمكان سكن الخير (الآلهة)، أما العالم السفلي فهو مرتبط بالفوضى واللعنة، وهو عالم جهنمي تسكنه الحيات والشياطين وقوى الشر، لذا فإن الفضاء ينقسم إلى مناطق لكل منها قيمة رمزية، ولكل اتجاه مثل يمين شمال أمام خلف أعلى أسفل ومركزه قيمة يستمدها من صلته بالمقدس أو غير المقدس (عجينة ج2، 1994).

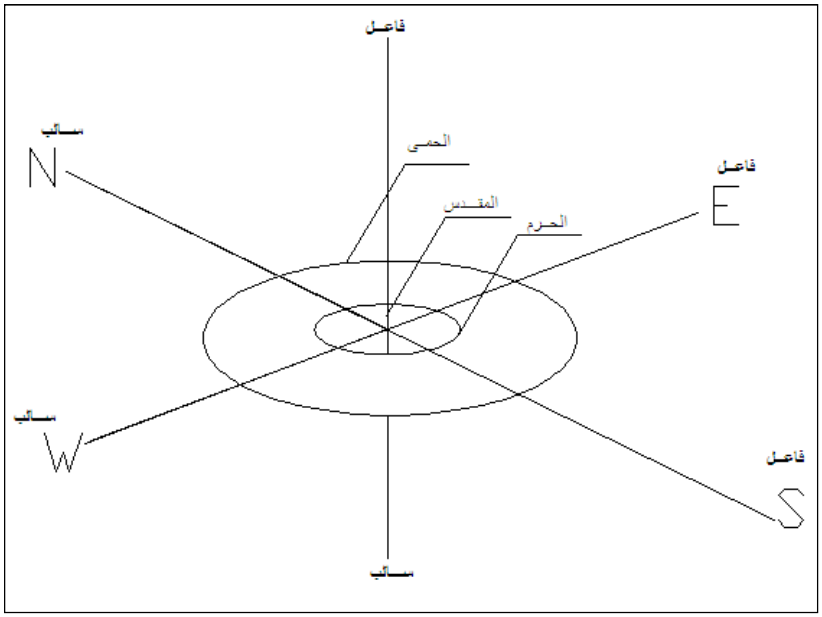

الشكل 1: القطبية الثنائية وتدرج قدسية المكان في المعتقد اليمني (الباحث)

2-3 تحديد المركز والمحور (المقدس)

من أهم اشتراطات الكشف عن المكان المقدس والتوجه "لتأسيس العالم" حيث العيش واقعياً، هو الحصول على المركز "النقطة الثابتة"، والتي يتم الكشف عنها من خلال علامات خارقة لا تنتمي لهذا العالم أو بمساعدة أحد الكائنات التي لا تنتمي إلى عالم البشر (إلياد، 1988)، ولكون هذه النقطة الثابتة تمثل المركز الذي يمتد منه المحور الكوني للعالم، فقد كان يحدد موقع المركز والمحور في اليمن القديم في الجبال أو مكان مرتفع عن مستوى الأرض. كون الجبل يحمل رمزية مزدوجة فهو يرمز إلى المركز والمحور، فكان اليمنيون القدماء يختارون الجبال كمكان لإقامة معابدهم نظراً لتقديسها واعتبارها أماكن مقدسة (De Maigret, 2002). والمركز هو النقطة الثابتة التي تمثل حجر الأساس، وتحديد موقعها يتطلب دلائل احتذاء ببداية خلق الكون حتى يصبح البناء البشري مشابه للعالم في بداية خلقه (إلياد، 1987)، فحين بداء سام في البحث عن أطيب أرض ووجد صنعاء أطيبها، بدأ بتأسيس المدينة وتحديد مركزها الذي يمثل قصر غمدان ووضعه للأساس، جاء طير وأخذ الخيط "المقرنة" وتحرك ليحدد له مكان ركن البناء "الظبر" (الارياني، 1995). إن وجود الطير يشير إلى أمر اختطاط صنعاء ولأجل اختطاطها كمكان مقدس، يتوجب تحديد مركزها المقدس فجاء الطير ليحدد المركز (المقدس)، والمحور هو الظبر الذي جاء في النقوش بعدة مدلولات منها الجبل أو الربوة الصخرية أو الحجر أو حجر الركن، فمنها مثلاً "وفج/ ظبرهو/ سون/ مشرقن: وممر صخره تجاه المشرق" وعن تأسيس وبناء قصر غمدان يُذكر إن سام بن نوح بعد أن وضع الخيط بموضع الأساس في فج عضدان غربي حقل صنعاء بناء الظبر (الأغبري، 2003).

ويمثل المعبد صورة مصغرة للكون والعالم، لذا فهو يحتل مركز العالم، وجدرانه الأربعة تمثل جدران السماء الأربعة (Lethaby, 1892). وعلى مستوى الكون الصغير (المعبد) يمثل قدس الأقداس المركز، وبوجود المركز تتكشف القداسة في المعبد، ومن قداسة المعبد تأتي قداسة المدينة ككل، فمقام الإله داخل المدينة يجعل منها مكاناً مقدساً، حيث ينتشر ويتجاوز الحدود الافتراضية لوجوده في رقعة معينة، فتكون المدينة مقدسة بفضل مكان محدد فيها يضفي عليها صفة القداسة ويحولها إلى حرم (الربيعي، 2000). وأن لوجود المعبد داخل المدن اليمنية القديمة قد اكسبها القداسة، وبذلك تتصف تلك المدن بقداسة حلت عليها وعلى سكانها بتواجد الإله وبيته داخل حدود سورها. وعليه، فإن تحديد مركز المكان المقدس يتطلب بناء معبد يحتله المقدس نفسه، فيكون المعبد هو المركز الروحي ونقطة الوصل بين المحاور الأفقية والمحور العمودية الذي يصل إلى السماء، ووجود المعبد يسبغ على المكان القداسة والحرمة، وحول هذا القطب يمتد العالم الصالح للسكن.

2-4 تحديد الحدود – الحيازات

إن لتباين الفضاء وانشطاره إلى مكان مقدس وآخر غير مقدس دور في تعريف المكان المقدس وعزله عن المكان غير المقدس عن طريق تحديده وتعيين معالمه، فكان يتم ذلك في اليمن القديم بأنصاب أو أوثان أو عن طريق تطويقه دائرياً (Hoyland, 2001)، ثم يوكل حمايته إلى إله خاص بحماية الحدود، حيث كان لكل مملكة يمنية قديمة إله خاص بالحدود، فمثلاً كان الإله "ورفو" إله الحدود في مملكة قتبان (الحسني، 2012)، وكان الإله "قوس أو قيس" إله حماية الحدود عند قبائل ذو ريدان (الحمد، 1995). هذا وتمثل الحدود نهاية تأثير المقدس، وهي الإطار المقدس لكل مكان، فالمعبد مثلاً له حدود لا يجوز انتهاكها ولا القيام بأعمال أو أفعال شائنة فيها، وهي عادة على شكل دائري تحيط بالمكان، ويأتي معنى المحيط في نقوش المسند تحت لفظ "حول" وتعني قوة سحرية للمعبود لحماية المكان (سالم، 2011). ومن المحيط جاء مفهوم "الحوطة" المشتقة من الفعل الماضي "حوط"، وكلمة الحوطة تعني الموضع والمكان الذي يختطه الولي ويحدده من كل الجوانب ويعلن أنه أصبح حرماً آمناً ومكاناً مقدساً (عقيل، 1987)، فلا يصبح للكائنات الشريرة مفعول، فلا تؤذي الأفاعي الساكنين داخله أو على قرب منه، وقد قال اللبخي إذا لدغت الأفاعي إنسان ما قرب ناعط وصاح ناعط ناعط لم تضره بشيء وذلك أن مدينة ناعط محوية، أي مقدسة ومحفوظة (الهمداني، 2004). ومن الخصائص العامة للحوطة، أن تكون في ملتقى الطرق التجارية، وأنها محاطة بهالة قدسية، وان تعترف بحرمتها حكومات المنطقة والقبائل المحيطة (عقيل، 1987).

ولقد كانت هناك حدود تفصل بين الأماكن بحيث يكون ما بداخلها من أرض مقدسة لا يمكن انتهاكها، وعلى مستوى العمران فإن هذه الحدود هي عبارة عن أراضي مقدسة تفصل بين المدن والقرى (بروتون، 2002). وللمدن حدود ما كان خارجها عُد منقطع الصلة عنها، وتسمى هذه الحدود في النقوش المسندية بلفظ (اود) بمعنى (الحد) وهي حدود المدينة (علي ج5، 1993). وإن وجود وتجلي المقدس في المركز ينتج عنه تكثف القداسة، بحيث تقل وتتدرج كلما ابتعد الفضاء عن (المركز) الذي يمثل بالمذبح أو قدس الأقداس في المعابد، ثم يأتي بعده الحرم الذي يمثل بالمعبد، وأخيراً يأتي الحمى الذي يُحدد بالتطويق والإحاطة للأرض المحمية من كل الجهات بعد أن تحدد حدوده بوسائل معينة كما عمل كليب بن وائل باستخدام بعد عواء الكلب من كل الجهات (علي ج7، 1993). وعادة كان يتم رسم حدود الأرض المقدسة ووضع علامات (ركائز أو أعمدة) على جميع الأطراف، وفي المدن كان يحدد المكان المقدس بواسطة الجدران (Hoyland, 2001)، أو الأسوار المحيطة بالمدن، فكانت للأسوار آلهة خاصة بحمايتها ففي نقش قتباني يوضح أن الإله عم كان حامياً للمدينة وأسوارها، حيث جاء فيه ان "أهل أسلمن قاموا ببناء أسوار المدينة ذي سلم (أو سليم) من معبد عم وقوة شعبهم (قبيلتهم) أسلمن وضعوا في حماية (الإله) عم المدينة ذي سلم" (الحسني، 2012).

2-5 تبني النماذج - البدئي والمثالي

ارتبطت فكرة النمط type بالمفاهيم والقيم الروحية وذلك من خلال الأنماط العليا التي تشمل النماذج الأولية لأي عملية خلق جديدة، حيث يمثل خلق العالم النمط البدئي (archetype) لكل حركة خلق بشري ليصبح مثال يحتذي به في كل خلق جديد (إلياد، 1988)، وهذا النوع يمثل أنماط تحمل تعبيرات أسطورية يشترك في تصورها أفراد المجتمع كونها تعبر عن الاعتقاد بأن الإله أو الأبطال الأسطوريين هم من صنعوه. هذا ويمثل النموذج الأمثل (prototype) القالب المرجعي لتبني أي نتاج معماري جديد بهدف المحاكاة والرمزية لصنع أسطوري أو إلهي مخلد، وهذا النموذج يمثل الشكل التجسيدي المقدس للمفاهيم والقيم الروحية العليا ضمن ثقافة المجتمع، وبتبني فكرة النموذج الأمثل تتجدد المفاهيم العليا لدى المجتمع عن طريق الاستحضار لها فيكتب له الاستمرار والديمومة وتترسخ في ذهن الأفراد في أشكال مادية. والحقيقة، لقد كانت المعابد في مخيلة القدماء تمثل النموذج الأمثل prototype للسماء، فهناك علاقة بين تصميم المعبد وشكله وبين العالم (Lethaby, 1892)، كما يمثل المسكن كون صغير في الرؤية التقديسية (الصاوي، 1994). وفي هذا الصدد يعتقد رابوبورت ان تصور الإنسان للكون والعالم ينعكس بمقياس اصغر للكون فيمثل المدينة بكاملة أو القرية أو المسكن، وحتى الفراغ والأثاث (Rapoport, 1969).

وان الإنسان الديني بطبعه يخلق رموزاً فيزيائية لمفاهيم عقائدية مثل تبني النموذج للجبال المقدسة، في أعمال وأشكال معمارية تملك وظائف روحية تشبه جبال الإله، وكون الجبل قد أرتبط فيزيائياً وروحياً بالسماء والإله، لذا استخدم كنموذج للفضاء والمكان المقدس، وكونه يمثل المحور الكوني ويمتلك قوته المقدسة لذا تحولت هذه القوة إلى أشكال مثل المعابد والقصور وغيرها (Sowannee, 2009). وان هذه النماذج تجسد التصورات والأفكار الأساسية للحياة الأولى في السماء (زمن البدء)، فمثلاً كانت فكرة البيت الإلهي (السماوي) لدى العرب القدماء له شكل "مكعب" وليس شكلاً آخراً فكان الشكل المكعب مقدساً (الربيعي، 2000)، فبنيت على غراره كل المعابد والمساكن. وفكرة الشكل المكعب جاءت من الجبل الذي يمثل النموذج الأمثل والذي يتميز بثباته المشابه لثبات العالم، لذا تم تبني الشكل المستقر- المربع والمستطيل - محاكياً للجبال المقدسة.

وعند البحث عن جذور الشكل المعماري للمعبد اليمني باعتباره النموذج الامثل، يتضح التشابه الكبير عند مقارنة شكل المعبد مع أشكال موائد القرابين (الاشكال 2-5). فشكل المعبد عبارة عن مكعب تبرز البوابة في مقدمته وبذلك فالشكل العام جاء ليلبي الرؤى والمفاهيم العقائدية فيجسد بصورة رمزية المائدة المقدسة التي جاءت بدورها تعبر عن مفاهيم فكرية. وحيث ان الشكل هو وسيلة الاتصال الأولى عند الإنسان على مر التأريخ، فالتعبير في الشكل يمثل حقيقة الإيصال، وان المعنى للشكل إن كان مجرداً يكمن في فعل الاتصال والتشابه. وفي هذا الصدد، يقول العريقي "كان تصميم المعبد اليمني وخاصة الشكل الخارجي هو الملهم للفنانين اليمنيين القدماء حيث استلهموه ووظفوه في جميع أنواع الزخارف التي استخدموها على الفنون الصغرى. فقد استلهمت منه عدد كبير من أشكال المباخر، ومعظم أنواع تيجان الأعمدة المخروطية الشكل، ونوع من أنواع موائد القرابين، وهي موائد التقدمات التي جاءت مطابقة لتصميم المعبد من الخارج" (العريقي، 2002). ويؤكد ذلك كريستيان دارل حيث يشير إلى أن موائد القرابين تعتبر مجسم مصغر لشكل المعابد القديمة، وان التزيين والزخارف التي توجد عليها تشابه الزخارف التي زخرفت بها المعابد (دارل، 1999).

ومن جانب آخر، فإن مسقط المسكن اليمني القديم ما هو إلا تكرار لمسقط المعبد، وذلك نتيجة التشابه الكبير، وهذا التكرار قد تكرر على موائد القرابين المقدسة. ولقد قارن البرفيسور دي مغرية بين مساقط المعابد والمساكن والمقابر فوجدها تتشابه من ناحية الشكل والتفاصيل مع بعض الحالات التي استبدلت فيها الأعمدة في صالة المعبد بقواطع في المسكن والقبر، مما يوحي بوجود نموذجاً معمارياً واحداً تم تحويره على حسب الوظائف (De Maigret, 2005)، هذا وقد اعتبر دي مغرية مسقط المعبد مستوحى من مسقط المسكن، ولكننا نختلف معه ونرى العكس من ذلك، وهو أن مسقط المسكن مستوحى من المعبد، كون المعبد بيت الإله، فوجود نموذجاً موحداً قد طبق في المقابر والمعابد والمساكن دلالة على وجود رؤى ومفاهيم دينية مرتبطة بتصور معين يحملها هذا النموذج تتعلق بقصر الإله في السماء. وعليه، فتطبيقه أولاً جاء على المعبد كونه يمثل نسخة طبق الأصل لنماذج بدئية، ويدعم هذا الرأي تأكيد أحد الباحثين عند حديثه عن أصالة تخطيط المعبد اليمني وامتداده ليشمل العمارة المدينة، حيث قارن وشبه تخطيط قصر شبوة ومساكن ريبون ومشغة بتخطيط المعبد (العريقي، 2002).

الشكل 2: مائدة قرابين بصف من الوعول – المتحف الحربي بصنعاء (تصوير الباحث)

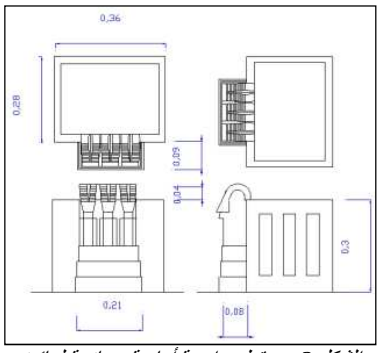

الشكل 3: مسقط وواجهة أمامية وجانبية لمائدة القرابين (الباحث)

الشكل 4: مجسمات لمعبد نكرح ومعبد عثتر داخل براقش (De Maigret, 2008)

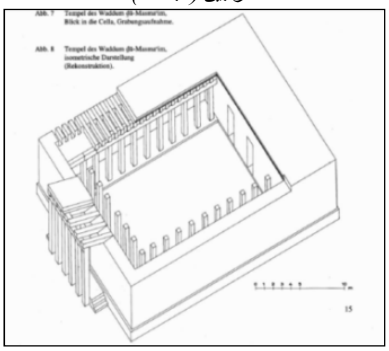

الشكل 5: ايزومتريك لمعبد ودم ذي مسمعم (De Maigret, 2002)

وعن التوجيه الامثل، يتضح عند المقارنة بين المعابد اليمنية القديمة أن توجيه المعابد استقر على اتجاه معين، فكان الاتجاه الرئيسي الذي يربط البوابة مع قدس الأقداس في المعابد القديمة، يقع على محور جنوب غرب- شمال شرق. وعليه، فإن تصميم المعبد في اليمن القديم كان بتوجيه أركانه إلى الجهات الأصلية؛ لتشير إلى الجهات الأصلية الأربع، فيما تتجه أضلاع الشكل باتجاه حركة الرياح الأربع (الصبا، والدبور، والشمال، والجنوب)، أو يكون توجيه المعبد محورياً مع محور الشمس، فتكون البوابة غرباً وقدس الأقدس شرقاً مع ميل بسيط يجعل البوابة تتجه قليلاً باتجاه الجنوب وقدس الأقداس شمالاً، فيكون الدخول إلى المعبد على يمين محور الشمس عند الاعتدال، فيعكس هذا التوجيه المعتقد أن اليمين ميموناً والشمال شئوماً (علي ج6، 1993) (الشكل 6).

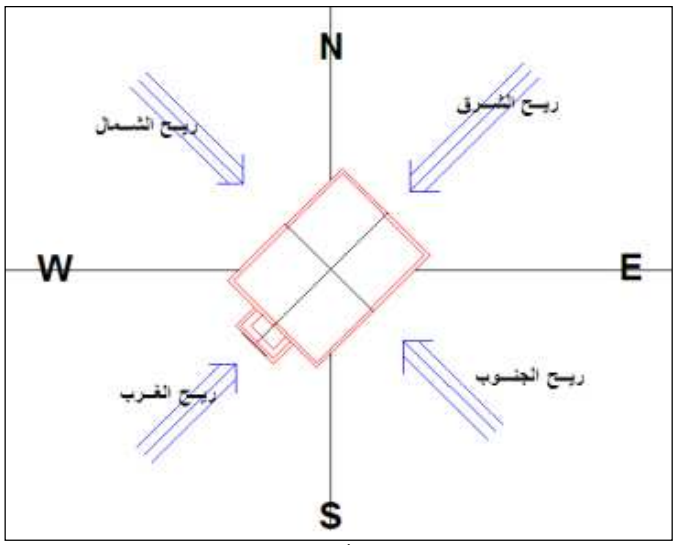

الشكل 6: النموذج الأمثل للتوجية (الباحث)

3 المدينة اليمنية القديمة

أُطلق على المدينة اليمنية القديمة في نقوش المسند "هجر أو هجرن"، حيث تردد هذا الاسم في كثير من النصوص النقشية التي من خلالها ميّز الباحثون الأثريون بين نوعين من المدن: هجر المدينة (العاصمة) كعاصمة سبأ مأرب (كهجر/ مريب)، وهجر المدينة عاصمة (الإقليم) الذي يقيم فيها القيل مثل (هجر/ وعلن) مدينة وعلان (الجرو، 2003)، والمدينة الهجر هي مدينة دينية محمية وآمنه فلا يجوز فيها الخصومات والنزاعات (العريقي، 2002). وقد تعددت المدن اليمنية التي أطلق عليها اسم هجر، حيث تم حصر 106 مدن تحمل اسم هجر من نقوش المسند، فكانت الهجر المدينة مكاناً آمناً يأمن فيه الناس على أنفسهم وأموالهم، ويمنع فيه الاقتتال، لذلك أصبحت الهجر مكاناً آمناً يؤدي فيه الناس شعائرهم الدينية بحرية (بركات، 1995)، والهجر من الهجرة والذي يمثل العامل الرئيسي في تعريف المكان

بـ"الحوطة"؛ أي المكان المقدس، واستمر حتى بعد دخول الإسلام اليمن، فكانت زيارة بعض الحوط لدى الحضارمة فرض عين، واعتبر بعضهم الحج إليها أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام "مكة" (عقيل، 1987).

3-1 مدن مملكة سبأ

بلغت مملكة سبأ شهرة كبيرة خلال الألف الأول ق.م، حتى أنها ذكرت في التوراة والقرآن، كما ذكرت في المصادر الكلاسيكية، وجاءت هذه الشهرة لتعكس المكانة التي شغلتها مملكة سبأ، حيث مثلت العمود الفقري للتاريخ اليمني القديم. وقد بدأت بوادر الاستيطان للمملكة السبئية، عبارة عن تجمعات بشرية قامت بإنشاء مدنها في بداية الأمر في المناطق الشرقية لخولان العالية، حيث وجدت البعثات الأثرية العاملة في اليمن مجاميع إنشائية في مناطق شعب العقل والجفنه ويلا الدريب (De Maigret, 2002)، واحتوت تلك المجاميع على منشآت كبيرة ذات جدران سميكة ومداخل محمية، خُصصت للأنشطة العسكرية والتجارية (دي مغريت، 1988). هذا وقد تطورت المدن السبئية في فترات لاحقة، وأصبحت تمتلك مخططاً بمعايير وقيم تستجيب لمتطلبات الشعب والدولة، فقد صُممت مدينة مأرب عاصمة المملكة على أرقى معايير التصميم والتخطيط السائدة حينها، حيث يقترح جلاسر أن تخطيط مدينة مأرب من عدة مناطق: المنطقة الأولى التل الشرقي الذي بنيت عليه المدينة الإسلامية، كما يوجد تل في الركن الجنوب الشرقي من المدينة وتحوي على معبد عثتر، وتوجد مساحة مفتوحة تقع في الجنوب الغربي (الميدان) إلى الغرب والشمال الغربي، ويوجد القصر في جنوب الميدان ربما كان هو قصر سلحين، حيث دل على ذلك القواعد الحجرية الضخمة. ولقد مثلت مدينة مأرب مركزاً دينياً مهماً وسوقاً تجارياً كبير، فمثلت ما يعرف بالحوطة (Doe, 1983)، لذلك فهي مكاناً مقدساً يحتل موقع المركز.

سيتم تطبيق النموذج على بعض المدن السبئية، واعتبارها نماذج للعمارة المدينة في المملكة، وهي مدينة "يلا" كونها تمثل الأقدم، ومدينة "صرواح" كون معالمها واضحة.

3-1-1 مدينة يلا الدريب

تقع المدينة في وادي "يلا"، على بعد 30 كم إلى الجنوب الغربي من مدينة مأرب، ومن خلال التواريخ الراديو كربونية التي أجريت على مسكن يقع في المدينة، فإن المدينة قد مرت بأربع مراحل استيطانية، الأولى في نهاية الألف الثاني ق.م، والأخيرة في القرن السابع ق.م (ايدينز ويلكنسون، 2001). وتمثل مدينة يلا الدريب نموذجاً للمدن السبئية المبكرة، حيث وجدت على تل طبيعي يرتفع عن مستوى الوادي، ويظهر من تخطيطها صغر حجمها، ومن الواضح أن المدينة قد صممت بشكل منحنٍ، وذلك تماشياً مع طبوغرافية الموقع المرتفع عن سطح الوادي، وأخذت مساحة 2.3 هكتار، حيث تركزت مبانيها على المنطقة الداخلية المرتفعة في الجنوب الشرقي للمدينة، حيث تلتف المباني السكنية حول ساحة وسطية كبيرة (الأشكال 7-8).

أثبتت التنقيبات الأثرية أن للمدينة سوراً قديماً قبل سورها الحالي تشكل من التفاف وتلاصق البيوت الخارجية للمدينة بشكل طوقاً دائرياً (دي مغريت، 1988)، كما أن أول ظهور للأسوار ذات البروزات (البارزة والغائرة) بشكل أبراج كان في مدينة يلا الدريب (الشكل 9)، والحقيقة أن للأبراج غرض إنشائي، فهي تقوم مقام الدعامة والأكتاف التي تربط الأجزاء وتحميها من السقوط، وكانت تسمى هذه الدعامات بلغة المسند "محفر"، وهذا الأسلوب من التسوير يفيد في كسر خط السور الطولي، ويعطي السور لمسة فنية من خلال الاختلاف في الظل والنور على واجهة السور، وهذا الأسلوب كان متبعاً في بعض دول الشرق القديم، فقد ظهر في مجموعة زوسر بصقارة وفي معابد العراق القديم (بركات، 1995). وللمدينة مدخل يقع في الركن الشمالي الغربي بين بروز لكتلتين من السور ويتم الصعود إلى مستوى المدخل عبر سلم متدرج (الأغبري، 1994).

الشكل 7: موقع عام لمدينة يلا الدريب
(De Maigret, 2002)

الشكل 8: صورة جوية لمدينة يلا الدريب
(شبكة الانترنت)

وبناءً عليه، فقد اثر المعتقد اليمني على اختيار موقع المدينة في مرتفع عن المحيط، ليرمز إلى الجبال المقدسة (المركز والمحور) مكان تجلي الإله. وشكّل سور المدينة ظاهرة فريدة وجديدة، فعلاوة إلى أن السور يجسد حدود المكان، والحد الفاصل بين المكان المقدس (داخل المدينة) والمكان غير المقدس (خارج المدينة)، فقد مثّل أول ظهور للأسوار الوظيفية والرمزية، والتي تتميز جدرانها بأسلوب الناتئ والغائر، وقد جاءت الرمزية من خلال المحاكاة الشكلية لقرون الوعل المنحنية والحلقية، بحيث وظفها البناءون في الشكل الخارجي للسور، فإلى جانب الوظيفة للبروزات كدعامة إنشائية للسور وتقوية قوامه ونقاط دفاعية للساكنين في مواجهة الأعداء، كذلك حماية معنوية ورمزية من خلال التوظيف الرمزي لرموز إلهية تشمل رموزاً تجريدية لصفوف الوعل الذي يرمز للإله عثتر. كما ان الوصول إلى مستوى أرضية المدينة يتم عبر درج يسبق المدخل ليشير بذلك إلى الارتقاء والسمو إلى الجبل المقدس ومنها إلى السماء. ويتم الدخول إلى المدينة من مدخل على جانبية كتلتين تشير بدورهما إلى القطبية والثنائية للعالم والوجود. وأخذت الساحة الوسطية التي تلتف حولها مساكن المدينة العليا دور المركز والمحور العمودي الذي يربط المدينة مع السماء، فيضمن لساكنيها الاتصال بالمقدس. وعليه، فقد شكلت الساحة الوسطية المركز في قدسية المكان فيما شكل السور حدود الحرم (الشكل 10)، وباعتبار المدينة قد اقيمت في منطقة مقدسة كانت تقام فيها طقوس الصيد المقدس، والتي تمتد من معبد معربم المساجد في الجنوب الى الجفينة وشعب العقل في الشمال والشمال الغربي والتي تمثل حدود الحمى في قدسية المكان.

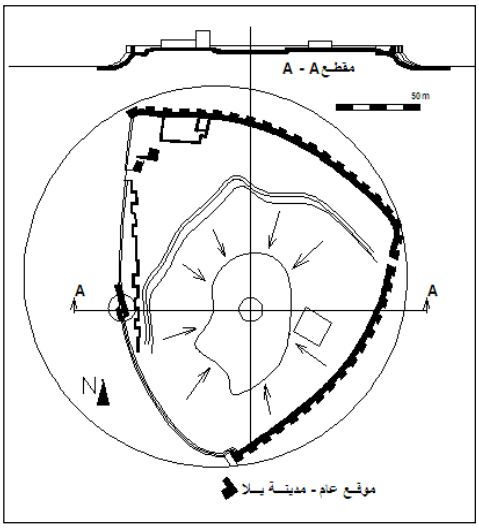

الشكل 10: مسقط ومقطع لمدينة يلا (الباحث)

الشكل 9: سور يلا من الجنوب - تظهر البروزات (الباحث)

3-1-2 مدينة صرواح

تقع مدينة صرواح على سفح جبل يبعد 40 كم غرب مدينة مأرب، وقد صممت المدينة على مساحة تتجاوز 6 هكتارات، وجاءت متماشية مع طبوغرافية الموقع، وتم تخطيطها داخلياً بشكل شبكي عبارة عن شوارع تربط أجزاء المدينة شرق- غرب، وشمال- جنوب، وللمدينة شارع رئيسي يقسمها إلى قسمين شرقاً وغرباً؛ حيث تقع في الجهة الشرقية المباني الدينية، بينما تقع المباني المدنية غرب هذا الشارع، ويقع معبد المقة (وعول صرواح) في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة، وفي منتصف الجهة الشمالية يوجد القصر أو مبنى إداري (الشكل 11). وقد صممت المدينة بحيث تتجه أركانها إلى الجهات الأصلية، ويتجه محورها الرئيسي (الشارع الرئيسي) جنوب- شمال، والذي يربط المعبد في الجنوب مع القصر في الشمال.

يحمل توجيه المدينة وتخطيطها مدلولات رمزية، فالتوجيه جنوب - شمال يرمز إلى طريق التجارة، والمحور يجسد رمزياً المحور الأفقي الذي يربط البوابة وهميّاً بالمقدس في المعبد، ووجود المعبد في المدينة، يجعلها جزءاً من عالم الآلهة، ويسبغ عليها القداسة والحرمة، والمعبد في مضامينه الرمزية يمثل المركز والقطب الكوني الذي يربط السماء بالأرض، وحول هذا القطب يمتد العالم الصالح والمبارك للسكن؛ وباعتبار الجنوب ميموناً والشمال مشؤماً، فقد احتل المعبد جنوب المدينة حيث يمثل مركزها الروحي كما احتل الجهة اليمنى للداخل من بوابة المدينة الجنوبية وذلك باعتبار الجهة اليمنى فاعله واليسرى سالبه. وأحيطت المدينة بسور يبلغ ارتفاعه 8م، ويتشكل من بروزات مكونة من أجزاء ناتئة وغائرة، وبني السور بالطوب (اللبن) من الداخل، ومن الأحجار من الخارج.

وهذا التصميم جاء انعكاساً لمفاهيم دينية مرتبطة بالمسننات التي جردت من صفوف الوعول، والتي تحمل رموزاً ذات دلالات حول دور الآلهة في حماية الشعب والمباني، كما ان السور يجسد الحدود الفاصلة بين قطبية المكان، ويحدد حدود الحرم والحمى. وللمدينة مدخلان، واحد يقع في منتصف الضلع الجنوبي، وآخر يحتمل وقوعه في الضلع الشمالي، وتم تمييز البوابة وتحصينها لكونها تمثل مدخل المدينة، ونقطة الفصل بين العالم الخارجي (المدنس) والعالم الداخلي (المقدس)، وهي تحدد المعالم الأخيرة لحدود المكان المحرم (المقدس). وبناءً عليه، فقد تحقق المعتقد اليمني حول المكان المقدس وعناصره المختلفة، فاختيار موقع المدينة في مرتفع جبلي ليرمز إلى الجبل المقدس، ومثل المعبد المركز، وجسد السور حدود المكان المقدس، ومثلت البوابة نقطة الحد، وجسد الشارع الرئيسي المحور الأفقي والخط الفاصل في قطبية العالم والوجود. كما تحقق معتقد اليمن حول الاتجاه، فمثل الشارع الرئيسي الشرخ الذي حدد المكان المقدس واعطى المكان توازناً محورياً، حيث احتوت الجهة الشرقية منه على المباني الدينية فكان فاعلاً فيما احتوت الجهة الغربية منه على المباني المدنية. كما اخذت المدينة الشكل المستطيل او القريب من المربع الذي يتوسطه محور يبدأ بالبوابة وهو النموذج المثالي. وتوجهت شوارع المدينة الى المحور (الشارع الرئيسي) لتجسد الاروقة في المعبد وقواطع الغرف في المسكن (الشكل 12).

الشكل 11: موقع لمدينة صرواح (Gerlach, 2008)

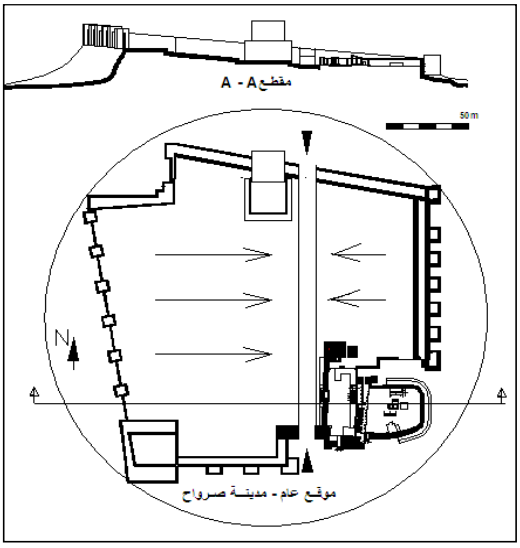

الشكل 12:موقع عام ومقطع لمدينة صرواح (الباحث)

3-2 مدن مملكة معين

قامت مملكة معين ومدنها الرئيسية مثل قرناو، وكمنة، ونشان، ونشق، وبراقش في وادي الجوف الذي تحيط به سلاسل جبلية، هي اللوذ ويام. سيتم انتخاب نموذجين من المدن المعينية هما: العاصمة قرناو (معين)، والعاصمة الدينية براقش.

3-2-1 مدينة قرناو (معين)

مثلت مدينة قرناو العاصمة السياسية للمملكة المعينية، وهي تقع في وادي الخارد من الجوف، فوق تل يرتفع 15م على مستوى سطح الوادي. والحقيقة، أن اختيار الموقع على مرتفع جاء ليحقق فكرة تقديس مكان تواجد الآلهة، ويكون دالاً لمدلول الجبال المقدسة، واختيار مكان مرتفع جاء تعويضاً عن الجبل المقدس، حيث إن المواقع المحيطة والقريبة تخلو من الجبال. كما تمّ تخطيط مدينة قرناو بشكل مستطيل وذلك بابعاد 350م* 240م تقريباً (Doe, 1983) (الشكل 13)، وبذلك فقد حاولوا تحقيق الجوانب العقائدية في محاكاة شكل المائدة المقدسة، وتم إخراج البوابة الغربية إلى الخارج لتبدو كمقدمة بارزة تشبه المقدمة التي تتقدم الموائد المقدسة.

ومن جانب آخر، فقد تم توجيه المدينة لتتجه أضلاعها إلى الجهات الأصلية بمحور رئيسي شرق - غرب، وبزاوية ميل 107 درجة من الشمال إلى الشرق، فيعطي هذا التوجيه دلالات تشير إلى ارتباط أركان المدينة بحركة الشمس في فصل الشتاء، وتم تعزيز ذلك ببناء برج في أركانها الأربعة. ولقد أحيطت مدينة قرناو بسور حجري يرتفع 8م، عليه نوافذ عبارة عن فتحات صغيرة صُممت في صفين، وتم تأطير نهاية السور بصف حجري يبرز من جانبي السور (الشكل 14). وعليه، فالسور يمثل نهاية حدود المدينة ويجسد حدود المكان المقدس ليصبح خارج السور مكان مدنس عديم البنية والشكل، وداخل السور مكان مقدس له شكل وبنية يصلح للسكن. هذا وقد بنيت عدد من المعابد داخل المدينة معروف منها الآن معبد عثتر الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة، وبهذا المعبد يتحدد المركز الذي يجسد المقدس فيسمح للاتصال مع السماء.

يتم الدخول إلى مدينة قرناو عبر أربع بوابات تقع كل بوابة في ضلع من أضلاع المدينة الأربعة، وهي بذلك ترمز وتشير إلى الجهات الأصلية للعالم؛ ومن كل بوابة يمر شارع تتقاطع جميع هذه الشوارع في مركز المدينة. هذا وتم تصميم المدخل الغربي بشكل بارز عن سور المدينة، حيث يتكون من مدخل خارجي ضيق، ثم فناء يوجد على جانبه الأيمن رواق مسقوف، ثم مدخل آخر ضيق، بحيث يكون المدخل الخارجي والفناء خارج السور، بينما يدخل المدخل ضمن حدود سور المدينة، فيعطيها دلائل كمرحلة تهيئة بين الخارج والداخل، ويبدو الجزء الخارجي من البوابة محاكياً شكل المائدة المقدسة، حيث المستطيل يمثل شكل المائدة، تبرز منه مقدمة مثلث بالمدخل الضيق البارز للخارج. ويوجد سلم في البوابة الجنوبية وسلم في البوابة الغربية يؤديان إلى مستوى أرضية المداخل ومن ثم إلى داخل المدينة (الأغبري، 1994).

إن السلم يشير إلى الصعود فيجعل الداخل يرفع نظره إلى السماء، كما ان رفع مستوى أرضية عتبة المدخل بهدف تمييزها باعتبارها تفصل الفضاء الخارجي (العام) عن الفضاء الداخلي (الخاص). وعليه، فقد جسد المركز عند تقاطع الشوارع المؤدية الى بوابات المدينة اضافة الى كون المعبد يمثل المركز ايضاً، وجسد السور حدود الحرم، وحدد حدود الحمى المعبد الذي اقيم خارج المدينة في الجهة الشرقية وذلك على بعد 800م منها. كما جسدت المدينة النموذج المثالي وهو الشكل المستطيل، وجسدت بوابتها الرئيسية (البوابة الغربية) والمحور (الشارع الرئيسي- من الغرب الى الشرق) والمعبد الذي اقيم في الجهة الشرقية من المدينة التوجية الامثل، حيث حلت بوابة المدينة محل بوابة المعبد وحل الشارع الرئيسي محل المحور فيما حل المعبد محل المقدس (المذبح)، وتوجهت شوارع المدينة الى المحور (الشارع الرئيسي) لتجسد الاروقة في المعبد وقواطع الغرف في المسكن (الشكل 16).

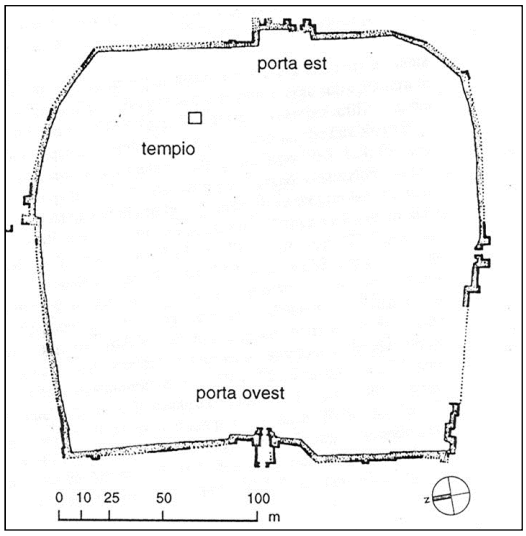

الشكل 13: موقع عام لمعين (حنشور، 2007)

الشكل 14: جزء من سور مدينة معين (الباحث)

الشكل 15: منظر للبوابة الغربية من الجنوب (الباحث)

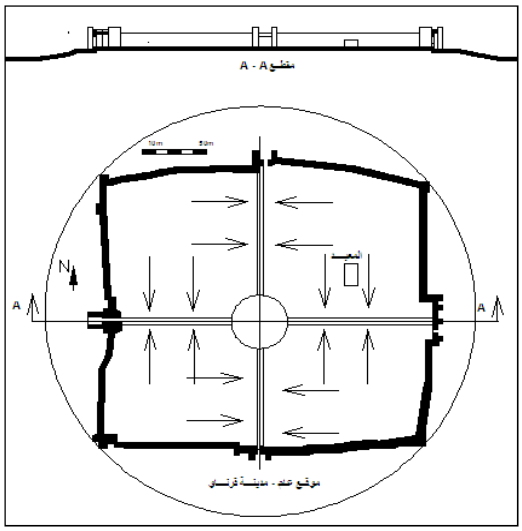

الشكل 16: موقع عام ومقطع لمدينة معين – قرناو (الباحث)

3-2-2 مدينة براقش (يثل)

تعتبر مدينة براقش (يثل) العاصمة الدينية للمملكة المعينية (عبد الله، 1990)، وتقع مدينة براقش على مسافة 15 كم إلى الجنوب من مدينة الحزم، وتقع على مرتفع على سطح الوادي، ويتجه محور المدينة الكبير باتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي (الشكل 17). ولقد جاء تخطيط المدينة على شكل نصف دائري قريب من الشكل البيضاوي، وبمساحة أكثر من 4 هكتارات، ويحيط بالمدينة سور ارتفاعه 14م مدعوماً بأبراج، وقد بني السور من الحجر وتمت زخرفته في نهاية البناء بأفاريز مسننة (دي مغرية، 2004).

لقد مثلت مدينة براقش مكان مقدس حيث تحتل المدينة موقعاً مقدساً، فقد كانت من الأماكن المقدسة التي كانت محجاً يُحج إليه، وكانت تقام فيها شعائر طقوسية وتقديم أضاحٍ وولائم وطواف وصلوات (الجرو، 1998)، وبها عدد من المعابد، وتم اختيار موقع مرتفع أقيمت عليه يرمز إلى الجبال المقدسة. وأخذت المدينة شكل الانحناء لقرون الوعل، وتم تعزيز ذلك ببروزات وتراجعات في بدن السور محاكياً لعقد قرون الوعل، فالانحناء غير المنتظم لسور المدينة يجعلها تبدو وكأنها الانحناء الذي تأخذه قرون الوعل. وللمدينة بوابتان أحداهما تقع في الجهة الشرقية والأخرى في الجهة الغربية (Doe, 1983). وبني السور بأسلوب البناء المتدرج الذي يتراجع للخلف فيه صف الأحجار العليا عن الصف الذي أسفله، ويميل البناء للداخل، وذلك لتحقيق فكرة التدرج للجبال المقدسة والميل الذي يحقق انحناء قرون الوعل. وتم إنهاء بناء السور بحزام يطوقه وهو عبارة عن صفوف من المسننات، وتم صقل حواف أحجار البناء الخارجية لتجعلها تبدو مطوقة ومحاطة. ولها بوابة رئيسية تقع في الجهة الغربية، وهي عبارة عن مدخل غائر نتيجة ارتداد في السور، بحيث تبدو واضحة وذلك بهدف تمييزها بوصفها نقطة مهمة وظيفياً، فضلاً عن كونها نقطة حد تفصل الخارج (العام) عن الداخل (الخاص).

وعليه، فقد جسدت مدينة براقش المكان المقدس، حيث جسدت المعابد التي اقيمت فيها المركز، وحدد الشارع الرئيسي الذي يربط البوابة الرئيسية الغربية بالبوابة الشرقية المحور، وجسد السور حدود الحرم، فيما تحدد حدود الحمى بواسطة المجمعات الشعائرية التي اقيمت في شقب المناص. كما تحقق النموذج الامثل للتوجية حيث جاءت البوابة في الغرب وجاء المحور الافقي الذي تتجه إليه الكتل البنائية محل المحور الوهمي الذي يربط البوابة بالمقدس في المعبد (الشكل 20).

الشكل 17: موقع عام لمدينة براقش- قوقل ايرث

الشكل 18: صورة من الغرب لمدينة براقش

الشكل 19: تراجعات البناء في سور مدينة براقش (الباحث)

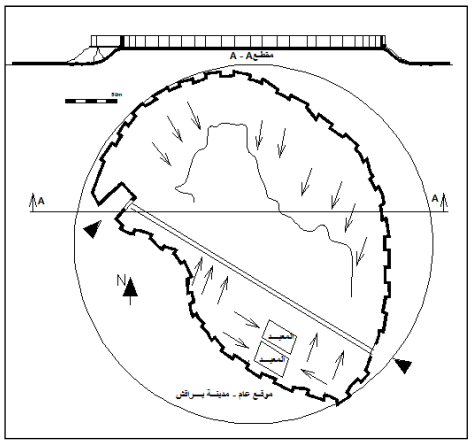

الشكل 20: موقع عام ومقطع لمدينة براقش (الباحث)

3-3 مدن مملكة حضرموت

امتدت مملكة حضرموت على مساحة كبيرة من الأرض، حيث كانت تمتد من حدود مملكة قتبان غرباً وحتى حدود عمان شرقاً، وقد قامت فيها عدد من المدن المهمة منها: شبوة، ونقب الهجر، وريبون. سوف يتم التطبيق على بعض المدن الحضرمية، واعتبارها نماذج للعمارة المدينة في مملكة حضرموت، وهي مدينة "شبوة" كونها تمثل العاصمة، ومدينة "نقب الهجر".

3-3-1 مدينة شبوة

تقع مدينة شبوة على وادي المعشار ووادي العطف في مرتفع صخري يرتفع إلى 50 م عن سطح الوادي. وقد تم استيطان مدينة شبوة منذ فترات قديمة جداً تعود إلى العصور الحجرية القديمة والحديثة، فالآثار الموجودة على التلال المحيطة بالمدينة تدل على أن المدينة قد سُكنت خلال العصر الباليوليتي، كما وجدت لقى أثرية تعود إلى العصر الحجري الحديث (بيرين، 1996)، فيما تم التأكد من الاستيطان فيها إلى بداية الألف الثاني ق.م، واستمرت كمدينة فاعلة من القرن السابع ق.م إلى القرن الرابع الميلادي (Breton, 2003).

تأخذ المدينة الشكل المستطيل المنحرف بزيادة اتساع ضلعها الشمالي الشرقي (الشكل 21)، وهذا الشكل يمثل شكل المائدة المقدسة. ويقطع المدينة شارع رئيسي يبدأ من الشمال الغربي الذي يوجد فيه المدخل وعلى جهة اليمين القصر، وينتهي المحور بالمعبد الرئيسي للمملكة في الضلع الجنوب الشرقي، والملاحظ أن أركان المدينة تتجه إلى الجهات الأصلية. ويمتاز تخطيط المدينة ونسيجها الحضري بالانتظام الهندسي على شكل متعامد للوحدات التي تتخللها شوارع ضيقة متعامدة مع المحور الرئيسي للمدينة، والذي يقسم المدينة ويربط بين القصر والبوابة والمعبد، والكتل البنائية تتجه بشكل متعامد مع المحور المركزي ومع السور المحيط بالمدينة، ويتباين نسيج المدينة من منطقة إلى أخرى، حيث تتواجد مبانٍ منعزلة في بعض المناطق، وتتشابك وتزدحم المباني في مناطق أخرى (دارل، 1996).

وبوجود الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة والذي ربما كان شارعاً مخصصاً لإقامة المواكب الدينية كونه ينتهي عند مدخل المعبد الرئيسي للمملكة (الأغبري، 1994)، فقد تحقق المعنى للمحور الأفقي الذي يربط البوابة بالمعبد الرئيسي، والذي يناظر محور المعبد الذي يربط البوابة والمقدس، وتم اختيار موقع مرتفع للمقدس (المعبد)، حتى تتحقق الرمزية للجبال المقدسة، مكان تواجد الإله، فيكون هذا المعبد مرتفعاً عن بقية أجزاء المدينة، حيث يليق بمكانة الإله، ويحقق المعنى الرمزي لحماية الإله للمدينة والساكنين من خلال إشرافه وإطلالته على جميع أجزاء المدينة. وبوجود المعبد الرئيسي (المركز) يتحقق للمدينة قدسية المكان، فيسبغ المعبد على المدينة قدسية يجعلها مكان مقدس وصالح للسكن.

يحيط بالمدينة سوران، أحدهما خارجي يمر على التلال الخارجية، والآخر داخلي يحيط بالمدينة، والسور الخارجي بُني بأسلوب البناء الكلاسيكي من بروزات تتناوب على طول الجدار. فيما بُني السور الداخلي من الأحجار واللبن بأسلوب يتغير بتناوب طولاً، ففي أماكن يُبنى بأسلوب البروزات وأخرى يكون مستقيماً. وقد مر بناء السور عبر عدد من المراحل التاريخية، فوفق إشارات كتابية، فإن جزءاً من بناء السور قام به (عم أنس)، وهذا النقش يحدد فقط زمن بناء برج وفناء أضيف إلى السور نحو عام 200 ق.م، ثم أعيد ترميم وتقوية السور وإضافة بعض الأبراج بعد ذلك، وخلال الربع الثالث من القرن الثاني الميلادي قام الملك يدع إل بين ابن يدع أب بترميم ثلاثة أبراج وأربعة أفنية (بيرين، 1996).

ان فكرة بناء السور بشكل بروزات ودخلات يحاكي شكل المسننات التي تم تجريدها من صفوف الوعول رمزاً للإله عثتر الحامي للمنشآت والمدن. ويجسد السور حدود المكان المقدس فيكون السور الداخلي مجسداً للحرم في تدرج المكان المقدس، فيما يجسد السور الخارجي للمدينة حدود الحمى. وللمدينة عدد من البوابات أهمها البوابة الشمالية الغربية، وهذه البوابة هي البوابة الرئيسية للمدينة، حيث بنيت بالأحجار ولها برجان، ويتجه منها الشارع الرئيسي للمدينة، الذي يمثل المحور

المركزي للمدينة، فيربط القصر الذي يوجد على يمينه، وفي نهايته يوجد المعبد الرئيسي للمملكة "معبد سين ذو اليم". والبوابة في معتقد اليمن القديم تجسد نقطة الحد حيث تفصل المكان المدنس (الخارج) عن المكان المقدس (الداخل). وعليه، فقد جسدت مدينة شبوة المكان المقدس، حيث جسد المعبد نهاية الشارع الرئيسي المركز، وحدد الشارع الرئيسي الذي يربط البوابة الرئيسية بالمعبد المحور، وجسد السور الداخلي حدود الحرم، فيما تحدد حدود الحمى بواسطة السور الخارجي. كما تحقق النموذج الامثل للشكل والتوجية حيث جاءت البوابة في الغرب وجاء المحور الافقي (الشارع) الذي تتجه إليه الكتل البنائية محل المحور الوهمي الذي يربط البوابة بالمقدس في المعبد (الشكل 22).

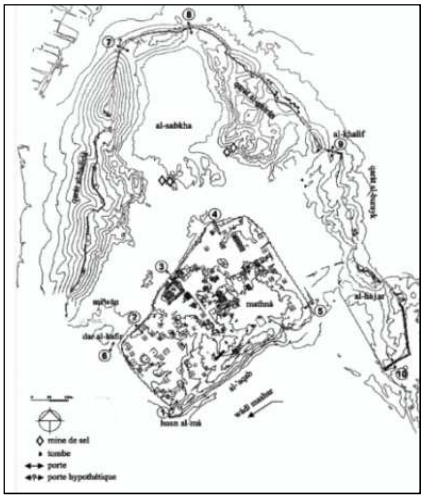

الشكل 21: موقع عام لشبوة يظهر السور الداخلي والخارجي (Breton, 2009)

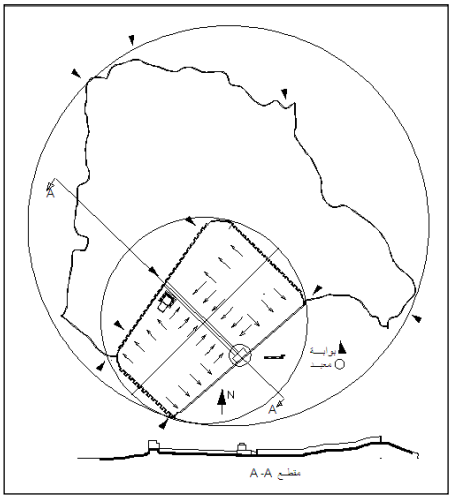

الشكل 22: موقع عام ومقطع لمدينة شبوة (الباحث)

3-3-2 مدينة ميفعة (نقب الهجر)

تقع مدينة نقب الهجر على تل يرتفع 14م عن مستوى الوادي، وتنقسم المدينة جيولوجياً إلى قسمين شمالاً وجنوباً، حيث المنطقة الشمالية هي الأقل ارتفاعاً. ومن الملاحظ أن جيولوجيا الموقع قد أثرت على تخطيط المدينة، فقد تماشت حدود المدينة مع تضاريس الموقع (الشكل 23)، هذا ويتجه محور المدينة الكبير باتجاه شرق- غرب. ولقد صممت المدينة إلى أحياء تتناسب مع طبيعة الموقع الجيولوجي، ففي الجنوب وبالقرب من المدخل الجنوبي على الجزء المرتفع في الغرب يوجد القصر وحوله عدد من المساكن، وعلى المنحدر الشرقي بالقرب من المدخل الشمالي يقع المعبد (بركات، 1995). وللمدينة بوابتان في الشمال والجنوب، حيث البوابة الشمالية هي البوابة الرئيسية للمدينة، فيما تتميز البوابة الجنوبية بموقعها، حيث تحتل منطقة ذات قمة صخرية صلبة ومنحدرة، وللمدينة سور بني كغيره من أسوار المدن اليمنية القديمة، حيث يتشكل من دخلات وبروزات، ويتبع السور الطبيعة الجيولوجية للمنطقة، حيث يتقطع في بعض المناطق المحمية طبيعياً، فينقطع في شمال شرق وشمال غرب المدينة.

يحمل تخطيط مدينة نقب الهجر مجموعة من المعاني الرمزية منها ان اختيار موقع المدينة في مرتفع صخري عن المحيط لتحقيق الجوانب الرمزية للجبال المقدسة، وجاء السور بشكل بروزات لتحقيق الجوانب الرمزية، وجاء المعبد (المركز) قريب من المدخل الشمالي ليسبغ على المدينة قدسية المكان، وجسد السور حدود المكان المقدس، فيما جسدت البوابة نقطة الحد والفصل بين المكان المقدس والمدنس. وعليه، فقد جسدت مدينة نقب الهجر المكان المقدس، حيث جسد المعبد الذي يقع في الجهة الشرقية المركز وحدد الشارع الرئيسي الذي يربط البوابات الشمالية والجنوبية بالمحور، وجسد السور حدود الحرم، كما تحقق النموذج الامثل للشكل والتوجية، وجاء المحور الافقي (الشارع الرئيسي) الذي تتجه إليه الكتل البنائية محل المحور الوهمي (الشكل 24).

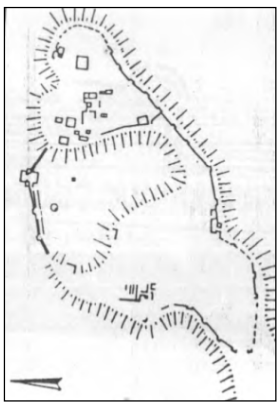

الشكل 23: موقع عام لمدينة ميفعة (بركات، 1995)

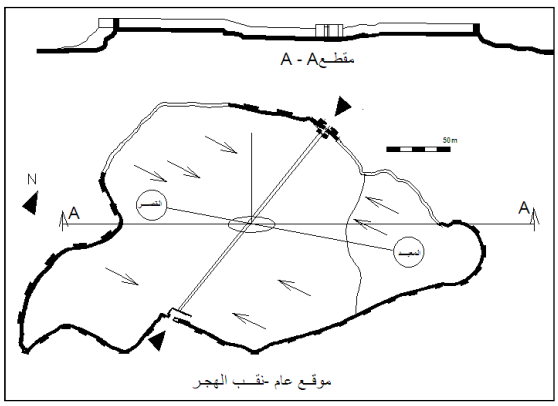

الشكل 24: موقع عام ومقطع لمدينة نقب الهجر - ميفعة (الباحث)

3-4 مدن مملكة قتبان

قامت مملكة قتبان في بداية الألف الأول ق.م في وادي بيحان، وانتهت في القرن الثاني الميلادي. سوف يتم التطبيق على مدينة تمنع كونها العاصمة واعتبارها كنموذج للعمارة القتبانية.

3-4-1 تمنع (هجر كحلان)

كانت مدينة تمنع عاصمة لمملكة قتبان والتي تقع حالياً في منطقة بيحان على مخرج وادي بيحان في الجهة اليسرى، حيث ترتفع المدينة على تل يبلغ ارتفاعه 25م عن مستوى سطح الوادي، تغطي مساحة 37 هكتاراً بأبعاد 670م طولاً و350م عرضاً (Doe, 1983). ولقد جاء تصميم المدينة بشكل بيضاوي، حيث تتجه بمحورها الطولي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ومن خلال ما كشفت عنه البعثات الأثرية لمبانٍ قريبة من البوابة الجنوبية وساحة السوق يتضح أن نسيجها الحضري جاء بنمط يمني قديم يمتزج فيه جميع مكونات المدينة من كتل عمرانية وفضاءات مفتوحة وشوارع رئيسية وأزقة ضيقة (الشكل 26). ويتشكل النسيج الحضري للمدينة اعتماداً على المناطق التي تم التنقيب فيها في ساحة السوق وبالقرب من البوابة الجنوبية من ساحات مركزية توجد في السوق وأمام القصر والمعابد والبوابات، وتربط بينها شوارع رئيسية يتخللها شوارع أقل حجماً وأزقة تفصل بين الكتل البنائية.

يتم الدخول إلى مدينة تمنع عبر عدد من البوابات، حيث توجد واحدة في الجنوب الغربي، وأخرى في الجنوب الشرقي، وواحدة في الشمال الغربي، وواحدة في الشرق (بركات، 1995). ولقد شيدت البوابة الجنوبية من أحجار ضخمة من الجرانيت في الأسفل ثم تم البناء بالخشب والطين والتغليف بأحجار مصقولة، وللبوابة برجان من كل جانب، وفي الجهة اليسرى سكن للحراسة (الأغبري، 1994). ولمدينة تمنع سور لم يكن عبارة عن سور منفصل عن جدران المباني، بل تشكل السور من جدران المباني الخارجية (دي مغريه وروبن، 2006). وللمدينة سوق، وهو عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بها المباني السكنية التي يتكون دورها الأرضي من دكاكين ومخازن تجارية، ويوجد في وسط السوق مسلة نقش عليها قانون قتبان التجاري، ويمثل سوق المدينة مركزها، ويعزز ذلك وقوع مسلة الملك شهر هلال التي كتب على أوجهها الأربعة قوانين السوق (دي مغريه وروبن، 2006) (الشكل 27).

وعليه، فقد مثلت مدينة تمنع مكان مقدس توفر فيها شروط وعناصر المكان المقدس، حيث احتوت على عدد من المعابد (المركز)، وجاء المعبد الكبير في مركز المدينة (Doe, 1983). وتم اختيار موقع مرتفع أقيمت عليه يرمز إلى الجبال المقدسة؛ وجسد السور حدود المكان المقدس فيما جسدت البوابات نقطة الحد بين المكان المقدس والمكان المدنس (الشكل 28).

الشكل 25: شارع ضيق بين مساكن في تمنع (الباحث)

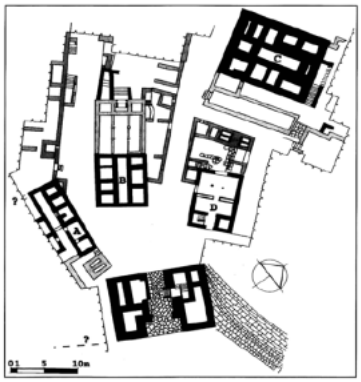

الشكل 26: الجزء الجنوبي (الحسني، 2012)

الشكل 27: سوق تمنع ومسله السوق (الباحث)

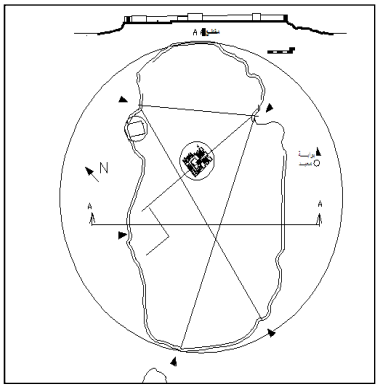

الشكل 28: موقع عام ومقطع لتمنع (الباحث)

4 العلاقة بين الرؤية العقائدية والعملية البنائية: المدن اليمنية القديمة

اتبع تخطيط المدينة اليمنية القديمة نظاماً معيناً، يعتمد على اختيار الموقع المدروس الذي يتوافق مع المتطلبات التخطيطية كالأمن والمناخ والتضاريس، فكانت تتم دراسة الإطار العام للمدينة، الذي يشمل حدود السور وموقع البوابات وسهولة الوصول للمدينة، والسوق الذي يرتبط بطريق القوافل التجارية، وأماكن خزن وتجميع المياه المطلوبة للساكنين، وموقع القصر والمعبد، وشبكة الشوارع الرئيسية والفرعية.

4-1 الموقع (المكان)

لقد أثرت جيولوجية الموقع بشكل كبير على شكل المدينة، كما أثرت الجوانب الأمنية المطلوبة للتحصين وحماية المدينة بشكل كبير على اختيار موقع المدينة، فكان يتم اختيار موقع المدينة على مرتفع يتوفر فيه مجموعة عوامل مرتبطة بالجوانب الأمنية والعقائدية والاقتصادية. وعلى الرغم من أولوية الموقع الجغرافي المناسب والمتطلبات الأمنية، فإن ذلك لا يمنع إدراجها رمزياً داخل حدود المقدس وعزلها عن الفضاء الأخر (الجن والأرواح الشريرة) في ثنائية الفضاء المقدس والمدنس- فضاء القوى الخيرة وفضاء القوى الشريرة- وبذلك لم يعد الاستيطان شأن أنساني فقط وإنما أصبح القرار يخص عالمين، يمنح بعدها الاستيطان والسكن بعداً انطولوجياً. وعليه، فقد اتخذت المدن في المكان المرتفع على مستوى المنطقة المحيطة، بحيث تتحقق فكرة تقديس الجبال، وظهور وتجسد الإله، كما أقيمت بعض المدن على أرض كانت "حرم" (أرض مقدسة)، وبذلك تصبح المدينة مقدسة ومحفوظة بسبب إنشائها على أرض مقدسة يملكها الإله، كما كان يتم إنشاء معبد أو عدة معابد داخل المدينة لمقام الإله، فتصبح المدينة كلها مقدسة بفضل مكان المعبد وحلول الإله فيه فيسبغ على المدينة قدسية ويحولها إلى مدينة مقدسة.

4-2 النموذج الأمثل (الشكل والتوجية)

أخذ تخطيط المدن اليمنية القديمة نمطاً معيناً، فهي إما مستطيلة أو مستديرة أو في شكل قريب منه اعتماداً على جيولوجيا الموقع لتحقيق الجوانب الرمزية، فالمستطيل يشير إلى شكل المذبح، والمستدير يشير إلى شكل الشمس أو القمر بأطواره، ومفهوم المدينة الدائرية يرتبط بمفهوم الكون، وصورة الوحدة الكاملة، وشكلها يظهر طريق المرء الذي يندمج بنفسه داخل الكون، وإن مركز المدينة الذي يشير إلى المحاور والاتجاهات الأصلية، ما هو إلا تعبير عن الحياة المقيمة والصورة الساكنة المتزنة للكون. ولقد كانت مدن مملكة معين أكثر من غيرها تحقيقاً للجوانب الرمزية، فالنموذجان المختاران هما معين كمدينة تمثل العاصمة السياسية وجاءت كالمائدة المقدسة، والمدينة الأخرى هي براقش والتي تمثل العاصمة الدينية وجاءت كشكل قرون الوعل. أما عن توجيه المدن اليمنية القديمة فقد ارتبط بالموقع الذي أقيمت عليه، من حيث ارتفاعه وتضاريسه وحوافه، فكانت أغلب المدن تتجه إلى الجهات الأصلية، أي كانت الأركان متجهة نحو الجهات الأصلية، والأضلاع تتجه للجهات الثانوية.

4-3 الاختطاط والتخطيط للمدن اليمنية القديمة

لقد تدخلت الأساطير في بناء المدن اليمنية القديمة، فنجد أن كثيراً من الأحيان يُعزَى بناء المدن إلى النبي سليمان وفي بعض الأحيان ينسبون بناء المدن إلى القدماء مثل قوم عاد وثمود (بركات، 1995)، بحيث تكون المدينة نموذجاً ارضياً للجنة السماوية وهي في معتقدهم تمثل فكرة (الفردوس الأرضي) وأنها تحتل مركزاً حيوياً في الأرض تشاطر في ذلك مركز الجنة السماوية (الربيعي، 2000). وعليه، فإن التماهي داخل منظومة المعتقدات العربية القديمة بين "الجنة" و"المدينة" كان مؤكداً وواقعاً لذا فان "جنة عدن" كانت تعبيراً عن الدرجة الرفيعة من التمدن الذي شهده اليمن القديم في عصر الممالك القديمة (الربيعي، 2000). وحيث أن المدينة بنظرهم كانت مقدسة، لذا كان يتطلب عند إنشائها وحين الانتهاء من البناء أقامت طقوس معينة، حتى يتم تكريس المكان وإضفاء نوع من التقديس عليه ووضعه تحت حماية الإله، فتذكر النقوش أن ملك حضرموت قام بذبح عدد من الحيوانات بعد إتمام بناء التحصينات لمدينة عرمة (العريقي، 2002).

هذا وقد تباينت المدن اليمنية القديمة في حجمها، فمنها المدن الصغيرة ومنها المدن الكبيرة، ونظراً لمحدودية المدن بسور أو موقعها الجيولوجي، فإن كل زيادة كانت تحدث في حجم السكان لا يصاحبها اتساع وبناء خارج الأسوار، ولكن انعكس في الاتجاه والبناء إلى الأعلى، ولهذا كان الغالب على نمط البناء السكني البناء البرجي، فيما جاءت شوارع المدن ضيقة ومبانيها متلاصقة ومتراصة، ويتسم النسيج الحضري للمدن اليمنية القديمة بأن تقسم المدينة إلى أحياء شيدت بها القصور ومنازل الحرفيين والعامة والمعابد، ويحتل القصر موقعاً متميزاً، وفي قلب المدينة أو مواجهة للقصر يقع الميدان الرئيسي الذي يستعمل كسوق تجاري (السروري، 2002)، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج لحمايتها من غزو الغزاة، ولها أبواب تغلق ليلاً وتحرس حراسة شديدة، كما تغلق وتسد أيام الحروب (علي ج5، 1993). وعليه، فقد تميزت المدن اليمنية القديمة بنسيجها الحضري المتضام، وهي ذات نسيج متشابك من المباني والشوارع، حيث تبدو ذات تخطيط عشوائي، ولكن عند التمعن وتتبع البؤر المشكلة للمدينة يتضح أنها تتوزع حسب بنية مورفولوجية واضحة، وذلك بتقارب وتلاحم المباني الذي تتخللها ممرات وأزقة، وفضاءات مفتوحة داخل أحياء المدينة. أما من حيث التكوين العام للمدينة فغالباً ما يكون المعبد والقصر هما محورا ثقل المدينة، وتتركز اتجاهات الحركة ومسالكها إليهما، كما أن السوق يمثل المحور للمدينة والقطب المركزي الذي يربط الحركة بين المعبد والقصر.

4-4 السور (الإحاطة)

لقد كان لكل مدينة يمنية قديمة سور يطوقها ويحميها، وكانت هذه الأسوار تُبنى بشكل بروزات، وإضافة إلى أهمية هذه البروزات في أعلى السور كمساحة كافية لإعطاء السور الاستقرار والمتانة المطلوبة، كما أنها تعمل عمل الفواصل، فيعمل كل جزء بمفرده، مما يمنع سقوط السور بالكامل. ولقد انعكست الجوانب الدينية على فكرة تصميم أسوار المدن اليمنية القديمة، وذلك من خلال التشريح التفصيلي لرمز الإله الحامي للمدينة، وتشكل السور من بروزات جاءت تجريداً لعقد قرون الوعل، وفضلاً على خدمة هذا الأسلوب من البناء وفوائده الدفاعية، من أجل تفادي حالات الفشل الإنشائي للجدران مثل الانبعاج والانهيار الكلي للجدار، فيما يشير العريقي إلى أن استدارة الأسوار كانت محاولة أراد من خلالها المعماري أن يعطي شكل آنية فخارية (العريقي، 2002). وللسور وظائف مادية كحامٍ للمدينة وخط دفاع، ووظائف معنوية فكلما ظهرت المدينة أمام العدو أكثر تحصيناً قل هدفه بمحاولة اختراقها، ويرجح إلياد (1988) أن الأسوار والدفاعات للمدن المسكونة كانت في أصلها كنوع من الدفاعات السحرية هدفها تفادي ومنع غزو الشياطين وأرواح الموتى أكثر مما هو غزو البشر. وحين وضعت المدن تحت رعاية إله معين أو عدد من الآلهة يسكنون داخل المدينة يبنى له معابد، فقد أصبحت المدن بمنأى عن القوى الشريرة ضمن حدود تقف عند حرم المدينة، التي كانت الأسوار عبارة عن تجسيد مادي لها بصورة رمزية، ومن خارج هذه الأسوار تصبح الأرض غير مقدسة تسكنها عوالم مجهولة، والسور هو تجسيد لفكرة الإحاطة للأماكن المحوية، لذلك فهو يمثل الحدود والحيازات التي تفصل بين المقدس (داخل المدينة) والمدنس (خارج المدينة).

4-5 البوابة (نقطة الحد)

مما لا شك فيه، ان البوابات تمثل أضعف نقاط في السور، لذلك فقد أدركوا أهمية تحصينها وتصميمها بأسلوب يضمن لها المنعة لتكون قادرة على الصمود أمام هجمات الأعداء، فعملت الأبراج المحيطة بحيث يكون للبوابة برجان من الجانبين للحراسة والمراقبة. والحقيقة،لم تكن للمدن اليمنية القديمة بوابة واحدة فقط بل عدد من البوابات كان الغالب عليها أربع. وللبوابة معانٍ أخرى مرتبطة بنقطة الحد التي تفصل بين المكان المقدس والمدنس.

4-6 السوق والشارع (المركز والمحور)

لقد أخذ السوق موقعاً متميزاً في المدينة، وكان عبارة عن فضاء كبير مفتوح يتشكل من التفاف المساكن حوله، ولكونه فضاء عاماً، لذا فقد تواجد في مراكز المدن (بركات، 1995) أو على جوانبها بعيداً عن المساكن، وكان يتوسط السوق الشارع الرئيسي الذي يبدأ من المدخل الرئيسي للمدينة ويخترقها عرضيّاً أو طوليّاً (جنشور، 2007)، وينتهي عند ساحة تتقدم القصر أو المعبد الرئيسي للمدينة، وبالإضافة إلى الشارع الرئيسي للمدينة توجد شبكة من الشوارع الفرعية التي تتخلل الحارات والمساكن للمدينة، وغالباً ما تكون متعامدة مع الشارع الرئيسي للمدينة. ويمثل السوق قلب المدينة سواء كان في مركزها هندسياً أو في مكان آخر، وقد كان

يعمل عمود يحدد المركز مثل سوق تمنع وتنقش عليه قوانين السوق ولوائح التجارة. ومن أهم سمات المدن اليمنية القديمة وجود محور- شارع رئيسي- يربط بين البوابة ويمتد إلى القصر أو المعبد، فيما تختلف الشوارع التي تتخلل الكتل البنائية، حيث تتدرج في العرض وتضيق كلما زاد تفرع الشوارع المؤدية للحارات.

4-7 المعبد (المركز الروحي)

اختلف موقع المعبد داخل المدينة، فليس للمعبد موقعاً محدداً (بركات، 1995)، ومن الملاحظ أن المعابد قد وجدت بشكل كبير، حيث لم تُبنى مدينة إلا وبها عدد من المعابد سواء كانت داخل سور المدينة أو خارجها. ولقد كان لمعتقد اليمنيين القدماء حول الحماية، ووجود عالمين من سكان الأرض هم البشر والكائنات غير المرئية، دوراً في أن يكون لكل مكان إله يحميه، ولهذا المكان حدود لا تشمل رعايته وحمايته خارجها، انعكس ذلك على توقيع المعبد، ليكون بيت الإله حتى يحل أو يتجسد فيه، ومن ثم يقوم بحماية شعبه سواء داخل المدينة كي يعيش السكان تحت ظله ورعايته، أو معابد خارج السور لتحل فيها الآلهة، فتكون حامية ومراقبة للشعب والمدينة من خارج أسوارها. والمعبد بمفهومه الضمني يمثل قطب الدنيا وعمودها الرأسي الذي يضمن ارتباط الأرض بالسماء، ووجوده في المدينة يضمن لها ولساكنيها العيش في مكان مقدس تم ربطه بالسماء (إلياد، 1988).

4-8 القصر والمساكن

ساد النمط البرجي متعدد الطوابق للمساكن في كل المناطق اليمنية، وكانت المباني السكنية تنتشر بصورة منتظمة على أطراف قصبة المدينة وسوقها، ثم في فترات لاحقة توسع البناء مما أدى إلى تلاصق المساكن أو تقاربها بشكل يبقي فقط أزقة ضيقة تفصل بينها (حنشور، 2007). وجاءت المساكن بنمطها البرجي تعبر عن فكر المجتمع واعتقاده في المحور الذي يربط السماء بالأرض يربط بين العالم النقي المقدس في السماء والعالم غير النقي والمدنس في الأرض. اما القصر فهو يمثل المركز الإداري والسياسي للدولة ومقر إقامة الملك، وقد احتل القصر مكانة مهمة في تخطيط العمران سواء من حيث موقعه أو من خلال تميز تصميمه، فكان لكل مدينة قصر.

5 النتائج

خلص البحث الحالي إلى نتيجة عامة مفادها ان المنهج التقليدي الذي يعتمد على دراسة ثقافة المجتمع ودورها في صياغة العمارة والعمران يمثل منهجاً علمياً اثبت جدواه في تفهم العمارة التاريخية والتراثية، وعليه فقد اثبت البحث الحالي امكانية استخدامه في مثل هكذا عمران.

كما خلص البحث في دراسة الحالة (المدن اليمنية القديمة) إلى النتائج التالية:

1- تم اختيار أغلب المدن الكبيرة تبعاً لطرق التجارة الرئيسية، هذا وقد أقيمت المدن في الأماكن المرتفعة على مستوى المنطقة المحيطة، حتى تتحقق الجوانب الدينية والرمزية لمعتقد تقديس الجبال التي هي أماكن تجلي الإله، كما وقد أقيمت بعض المدن على أرض كانت "حرم" (أرض مقدسة).

2- تميزت المدن اليمنية القديمة بنسيجها الحضري المتضام والمتشابك من المباني والشوارع، حيث تظهر في الوهلة الأولى أنها ذات تخطيط عشوائي، ولكن عند تتبع البؤر المكونة للمدينة يتضح أنها تتوزع حسب بنية مورفولوجية واضحة، وذلك بتقارب وتلاحم المباني الذي تتخللها ممرات وأزقة، وفضاءات مفتوحة (النواة) داخل أحياء المدينة.

3- أخذت أشكال المدن نمطاً معيناً، فهي إما مستطيلة أو مستديرة أو في شكل قريب منه اعتماداً على جيولوجيا الموقع لتحقيق الجوانب الرمزية، فالمستطيل يشير إلى شكل المذبح (المائدة المقدسة)، والمستدير يشير إلى شكل الشمس أو القمر بأطواره.

4- انعكست الجوانب الدينية على فكرة تصميم أسوار المدن اليمنية القديمة، وذلك من خلال التشريح التفصيلي لرمز الإله الحامي، فقد تشكل السور من بروزات جاءت تجريداً لعقد قرون الوعل، وفضلاً على خدمة هذا الأسلوب من البناء وفوائده الدفاعية، من أجل تفادي حالات الفشل الإنشائي للجدران مثل الانبعاج والانهيار الكلي للجدار.

5- جسدت المدينة اليمنية القديمة وعناصرها العمرانية المكان المقدس والتصورات الفلسفية حول الكون والعالم، فقد جسد المعبد المركز والمقدس، وحيث أن معتقد اليمن القديم كان لكل مكان إله يحميه، ولهذا المكان حدود لا تشمل رعايته وحمايته خارجها، انعكس ذلك على توقيع المعبد، ليكون بيت الإله حتى يحل فيه، ومن ثم يقوم بحماية شعبه سواء داخل المدينة كي يعيش السكان تحت ظله ورعايته، أو معابد خارج السور لتحل فيها الآلهة، فتكون حامية ومراقبة للشعب والمدينة من خارج أسوارها، والمعبد بمفهومه الضمني يمثل قطب الدنيا وعمودها الرأسي الذي يضمن ارتباط السماء بالأرض. كما جسد السور حدود الحرم والحمى، وجسد الشارع الريسي المحور الافقي، وجسدت البوابة الحد والفاصل.

6- تميزت المدينة اليمنية القديمة بميزة جوهرية ووحدة عضوية للمدينة ومكوناتها الاساسية كالشارع الرئيسي والمعبد والقصر. وهي مؤلفة من مدينة داخلية ومدينة خارجية، حيث تحتوي المدينة الداخلية على شارع يحدد محاور المدينة ويربط البوابة الرئيسية بالقصر والمعبد.

6 التوصيات

يوصي البحث بعدة توصيات منها:

1- يوصي البحث بزيادة عمل التنقيبات والدراسات الأثرية، للكشف والإفصاح عما تخفيه الأرض اليمنية، مما يسهل ويشجع الباحثين المختصين بالعمارة القيام بدراسات تساعد على إظهار التراث المعماري لليمن.

2- ينبغي الحفاظ على العمارة اليمنية القديمة؛ كونها تمثل إرثاً حضارياً تركه الأجداد، فيشعرنا بالانتماء والتواصل مع التاريخ العريق لأمتنا، فيولد إحساساً بالألفة ويقوي الهوية الحضارية للجماعة.

3- يوصي البحث الدارسين والباحثين في مجال العمارة والآثار، والتاريخ، والأنثربولوجيا، وعلم الاجتماع، بتكثيف الدراسات الخاصة بالمجتمع اليمني القديم، وثقافته المادية وغير المادية.

شكر وتنويه

أود أن اعبر عن جزيل شكري لأبناء بيحان ومأرب والجوف، والمتحف الوطني بصنعاء، والمتحف الحربي بصنعاء. كما اعبر عن جزيل امتناني وتقديري للإخوة: الدكتور صلاح الحسيني، والدكتور احمد حنشور، والدكتور جمال الحسني، والدكتور خلدون نعمان حيث قاموا بتزويدي بأكثر المراجع الهامة. كما ينبغي التنويه إلى ان هذا البحث هو جزء مستل من رسالة الدكتوراه للباحث أحمد عبدربه النهمي، كلية الهندسة، جامعة القاهرة.

المراجع العربية

1. الارياني (مطهر)، "غمدان أول ناطحات السحاب في العالم"، التراث العربي، 1995.
2. الأغبري (فهمي علي)، ألفاظ المنشآت المعمارية في اليمن القديم: دراسة من خلال النقوش والآثار والإكليل الجزء الثامن، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب - جامعة صنعاء، 2003.
3. الأغبري (فهمي)، التحصينات الدفاعية في اليمن القديم، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب - جامعة بغداد، 1994.
4. الجرو (أسمهان)، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، عدن، 2003.
5. الجرو (أسمهان)، "الفكر الديني عند عرب جنوب شبه الجزيرة العربية: الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي"، *مجلة أبحاث اليرموك*، م 14، ع 1، ص 219-250، 1998.
6. الحسني (جمال)، الإله عم وآلهة قتبان (٧٠٠ق.م –١٧٠م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب - جامعة طنطا، 2012.
7. الحمد (جواد مطر)، "الإله الزهرة (الابن) دراسة تاريخية في الميثولوجيا والمعتقدات اليمنية القديمة"، *مجلة دراسات العلوم الإنسانية*، المجلد 22 (أ)، العدد 6، ص 3189- 3216، 1995.
8. الربيعي (فاضل)، إرم ذات العماد- من مكة إلى أورشليم: البحث عن الجنة، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، 2000.
9. السروري (عبد الجليل)، "لمحات من فن العمارة والبناء في اليمن القديم"، *مجلة الإكليل*، ع 26، 2002.
10. الصاوي (علي محمد)، ديناميات العمران الشعبي والرسمي: نحو نموذج تصميمي للمجتمعات التقليدية، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الهندسة - جامعة القاهرة، 1994.
11. العريقي (منير)، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من600/1500 ق.م، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002.
12. المرقطن (محمد حسين)، "هندسة الري ودورها في نشأة الدولة في جنوب غربي الجزيرة العربية وتطورها"، *مجلة ادوماتو*، ص 201-202، 2013.
13. النعيم (نورة بنت عبد الله)، التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
14. الهمداني (الحسن)، الإكليل، ج8، تحقيق نبيه أمين فارس، دار الكلمة صنعاء، (د. ت).
15. الهمداني (الحسن)، الاكليل، ج8، تحقيق محمد بن علي الاكوع، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004.
16. إلياد (ميرسيا)، أسطورة العود الأبدي، ط1، ترجمة نهاد خياطة، طلاسدار دمشق، 1987.
17. إلياد (ميرسيا)، المقدس والمدنس، ط1، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1988.
18. ايدينز (كريستوفر) ويلكنسون، "جنوب شبة الجزيرة العربية في العصر الجيولوجي الحديث": دراسات في الآثار اليمنية، ترجمة ياسين الخالصي، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ص 1-96، 2001.
19. بركات (أبو العيون)، "المدينة اليمنية القديمة"، *مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية*، العدد 43، ص 197-248، 1995.
20. بروتون (جون فرنسوا)، "العربية السعيدة في عصر ملكة سبأ"، *مجلة حوليات يمنية*، العدد 1، ص 7-17، 2002.
21. بيرين (جاكلين)، "عصر ما قبل الكتابة التذكارية في المرتفعات (الثموديون)": شبوة عاصمة حضرموت القديمة: نتائج أعمال البعثة الأثرية الفرنسية اليمنية، ط1، إعداد عزة عقيل وجان بريتون، صنعاء، 1996.
22. حنشور (أحمد)، نشوء وتطور العمارة اليمنية القديمة، دراسة أثرية تاريخية، 2005.
23. حنشور (أحمد)، الخصائص المعمارية للمدينة اليمنية القديمة، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، قسم التاريخ- جامعة عدن، 2007.
24. دارل (كريستيان)، "المعابد"، (من كتاب) اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة بدر الدين عرودكي، معهد العالم العربي، دمشق، 1999.
25. دارل (كرستيان)، "العمارة المدنية في شبوة": شبوة عاصمة حضرموت القديمة: نتائج أعمال البعثة الأثرية الفرنسية اليمنية، ط1، إعداد عزة عقيل وجان بريتون، صنعاء، 1996.
26. دغيم (سميح)، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر اللبنانية، بيروت، 1995.
27. دي ميغريت (الساندرو)، مسح أثري لآثار وادي (يلا)، المجموعة المعمارية الأثرية السبئية في وادي يلا، (خولان الطيال، الجمهورية العربية اليمنية)، تقرير أولي، تعريب عثمان الخليفة، المعهد الايطالي لدراسات الشرقين الأقصى والأوسط، اسميو روما، 1988.
28. دي مغرية (الساندرو)، براقش يثل المعينية: حفريات وترميم في معبد نكرح، ترجمة مالك مالك، البعثة الإيطالية للآثار في الجمهورية اليمنية، 2004.
29. دي مغريه (الساندرو) وروبن (كريستيان)، تمنع العاصمة القديمة لقتبان، البعثة الايطالية للآثار في الجمهورية اليمنية، ترجمة مالك الواسطي، بحث رقم 3، المركز اليمني الايطالي للبحوث الأثرية، 2006.
30. سالم (هالة)، "التمائم في اليمن القديم"، *مجلة الجمعية التاريخية السعودية*، العدد 24، السنة 12، 2011.
31. شلحد (يوسف)، بني المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1996.
32. كايوا (روجيه)، الإنسان والمقدس، ط1، ترجمة سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010.
33. عبد الله (يوسف)، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1990.
34. عجينة (محمد)، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ج2، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1994.
35. عربش (منير) وهوغ (فونتين)، اليمن مدن الكتابات المسندية، بالعربية والفرنسية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، 2006.
36. عقيل (عبد العزيز جعفر)، "الحوطة في حضرموت": من كتاب حضرموت القديمة والمعاصرة، ج2، نتائج أعمال البعثة اليمنية السوفيتية، سيؤن، 1987.
37. علي (جواد)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5- ج7، ط2، جامعة بغداد، 1993.

REFERENCES

[1] Breton, J.F., Fouilles de Shabwa iv, shabwa et son context architectural et artistique, CEFAS – SANAA, 2009.

[2] Breton J.F., "Preliminary Notes on the Development of Shabwa", *Proceeding of the seminar for Arabian Studies*, 33, 2003.

[3] De Maigret, A., The Excavations of the Italian Archaeological Mission at Baraqish (Republic of Yemen), Newsletter Archeologia (CISA), 2008.

[4] De Maigret, A., "Some reflection on the South Arabian bayt", *ABADY*, 10: 101–109, 2005c.

[5] De Maigret, A., Arabia Felix: An Exploration of the Archaeological History of Yemen, Stacey International, London, 2002.

[6] Doe, B., Monuments of South Arabia, the Oleander Press and the Falcon Press, Italy, 1983.

[7] Hoyland, R.G., Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam, Routledge: London, 2001.

[8] Gerlach, I., "Marib Oasis of Sirwah", German Archaeological Institute, Orient Departement, *Research Report*, 2008.

[9] Lethaby, W., Architecture, Mysticism and Myth, London: Dover Publications, 1892.

[10] Rapoport, A., House Form and Culture, London: Printice Hall Inc, 1969.

[11] Smith, W.R., Lectures on the Religion on the Semites, Adam and C. Black, London, 1894.

[12] Sowannee, W., Sacred Mountain: Interpretation of Sacred Place in Thailand, PhD, AHMT Department, Silpakorn University, 2009.